ص٧ ص١٥ ص١٩ العلمانية والماسونية. ص٢٠ الماسونية والدين والتآخي

محفل ايزيس ص٢٨ الكتاب. ص٤٦ كوكب الشرق ٥٧ ٥٨ ماسونية الخديوي توفيق

ص٦٠ يوسف وهبي وزغلول وأمثالهم. ص٦١ سعد زغلول لهم / مجلس ... ص٦٣

شعراء ماسون ص٨٠ ص٨٣ أمثال ... ص٨٨ الدعوة الماسونية العلمانية

البرلمانية !! ص٩٠ مسرحية الماسون ويوسف وهبي.

تلك الخوارج ص١٠٢ ص١١١ ... الماسون

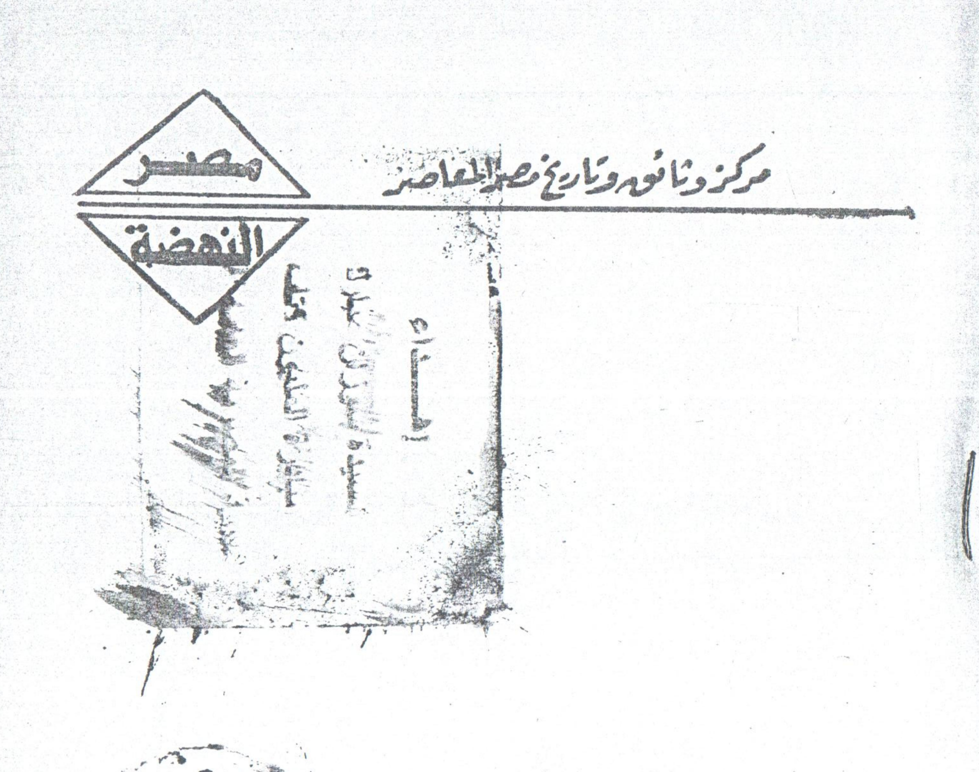
ص١١٢ محفل ... المصري و... !

مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر

٤٧

د. علي شلش

الماسونية في مصر



إشراف : أ.د. يونان لبيب رزق

مدير التحرير : خلف عبد العظيم الميرى

الاخراج الفنى : مراد نسيم

الماسونية فى مصر

د. على شلش



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٣

تقديم

تبقى فى التاريخ المصرى الحديث والمعاصر تساؤلات حائرة تبحث عن اجابات ..

بعض هذه التساؤلات تدور حول بعض الاحداث الغامضة فى هذا التاريخ مثل ما عرف باسم « مذبحة الاسكندرية » فى ١١ يونيو عام ١٨٨٢ والتى مهدت للاحتلال البريطانى للبلاد ، ومثل اشتعال حريق القاهرة فى ٢٦ يناير عام ١٩٥٢ والذى مهد لقيام ثورة يوليو من نفس العام .

بعض هذه التساؤلات حول تاريخ بعض التنظيمات السياسية والتى ظهرت واختفت بشكل يتسم بالغموض ، ويقدم تاريخ الماسونية فى مصر نموذجا لهذا النوع من التساؤلات .

فهناك من نظر الى هذه الحركة باعتبارها حركة ذات طابع استعمارى بل ذهب بعض هؤلاء بعيدا الى حد القول بأنها حركة صهيونية .

بالمقابل هناك من نظر الى هذه الحركة باعتبارها احدى

دعائم الحركة الوطنية فى مصر واستشهدوا على ذلك بالعلاقة الخاصة بينها وبين السيد جمال الدين الافغانى ابان فترة وجوده فى مصر ٠

وليس من شك أن سببا أساسيا من أسباب هذا الغموض الطابع السرى الذى التحقت به الحركة الماسونية سواء فى داخل مصر أو خارجها مما لفها بكثير من أسباب الغموض ، ومما جعل الدراسة فيها أشبه بالملاحة فى بحار مجهولة ٠

وتحرص مصر النهضة من بين ما تحرص عليه على نشر الأعمال التى يمكن أن تساعد على اجلاء الحقيقة فى هذا الشأن ٠

والدكتور على شلش وهو يحاول أن يستجلى الحقيقة حول موضوع الماسونية فى مصر فقد سبق له أن أسهم فى هذا المجال فى العدد الواحد والعشرين من مصر النهضة عن « جمعية مصر الفتاة » وهو بذلك أحد هواة الملاحة فى البحار المجهولة الذين ترحب « مصر النهضة » باكتشافاتهم سواء اتفقت أو اختلفت حول ماهية هذه الاكتشافات مما نرجو أن يتاح معه مزيد من الفرص لنشر مزيد من الكشوف التاريخية !

وعلى الله قصد السبيل ، ،

مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر

مقدمة

كانت مصر أول بلد عربى تدخله الماسونية قادمة من أوربا ٠

ولكن يجب أن نفرق بين الماسونية فى أوربا وأمريكا والماسونية فى غيرها ، ولاسيما فى المستعمرات الفرنسية والبريطانية ٠ والسبب فى هذه التفرقة أن الماسونية دخلت المستعمرات فى ظل المستعمرين وعلى أيديهم ٠ ومهما قيل عن خلو أهدافها من أى نشاط سياسى فى البلدان التى نشأت فيها أصلا ، ولاسيما بريطانيا ، فقد كان من المستحيل تقريبا أن تخلو من هذا النشاط فى المستعمرات ، معاديا أو متعاطفا ٠ ومهما تقنعت فى هذه المستعمرات بأقنعة الحرية والاخاء والمساواة فهذه الأقنعة تصبح بالضرورة ذات وجهين : وجه مع الأهالى ، أهالى المستعمرة ، ووجه آخر ضدهم ، أو ليس معهم على الأقل ٠

كيف اذن ــ ومتى ــ دخلت الماسونية مصر ؟

سنغض النظر عما ذكرته دائرة المعارف الأمريكية من أن بعض المصادر ترجع تاريخ الماسونية الى زمن بناء الأهرامات فى مصر ٠

وسنغض النظر أيضا عما ذكرته دائرة المعارف اليهوديـــة من أن البعض يعتقد أن الماسونية استمدت شعائرها من شعائر بناء هيكل الملك سليمان فى القدس ، ونشأت مع بنائه ، أى أن لليهود ضلعا عريقا فى تأسيسها · وسنغض النظر مرة أخرى عما ذكرته دائـرة المعارف البريطانية من أن بعض المصادر ترجع شعائر الماسونية الى طائفة الدروز فى الشام · فهذه وغيرها دعاوى أقرب الى التمحك فى التاريخ القديم حتى تظهر الماسونية بمظهر العراقة · والعراقة فى التاريخ لا تكتسب ـ كما نعرف ـ الا بنص أو وثيقة أو مستند ·

ومن الممكن تقسيم تاريخ الماسونية فى مصر ـ على أى حال ـ الى ثلاث مراحل :

١ ـ **مرحلة التأسيس** · وتمتد من غزو مصر على يدى نابليون بونابرت سنة ١٧٩٨ حتى غزوها مرة أخرى على أيدى الانجليز سنة ١٨٨٢ ·

٢ ـ **مرحلة الاستقرار** · وتمتد من الاحتلال الانجليزى حتى اشتعال الحرب بين العرب واليهود فى فلسطين سنة ١٩٤٨ ·

٣ ـ **مرحلة الانقراض** · وتمتد من حرب فلسطين حتى صدور قرار منع الماسونية والغاء محافلها سنة ١٩٦٤ ·

ونظرا لصعوبة البحث فى هذا الموضوع ، واختفاء سجلات المحافل ومحاضر الجلسات ، وألوان التراث الماسونى الأخرى فلا مفر ـ ابتداء ـ من الاعتماد على صحف الفترة ، والكتب والنشرات والدراسات عن الماسونية · وهذا ما طبقناه فى هذا الكتاب الذى يسعى الى القاء الضوء على تاريخ الماسونية فى مصر ·

كان الكتاب فى الأصل جزءا من كتاب أكبر بعنوان « اليهود والماسون فى مصر » ولكننا فصلناه عن أصله ، وأضـفنا اليـه ما استجد من معلومات حول الموضوع ، ونقحنا فصـوله بحيث تستوعب العرض التاريخى والملاحق الوثائقية · ونرجو أن يكشف غموض التجربة الماسونية فى مصر ، وأن يسد النقص الكائن فى تاريخها ، وأن يشجع الباحثين على استكمال البحث فى موضوعها ، وأن يجد فيه القارىء معرفة موضوعية بغير تعقيد ·

على شلش

لندن ، ١٩٩١

يلاحظ المتتبع لظاهرة الماسونية أن ماكتب عنها يعد من الغزارة بحيث يصعب حصره فى حيز ضيق ، حتى فى العربية(١) · ولكن هذه الغزارة تكاد تنقسم الى فئتين من الكتابة ، متعارضـــتين كل التعارض : فئة تمدح وأخرى تقدح · وبين الاثنتين يتوه القارىء ، ولا سيما فيما يتعلق بصلة الماسونية بالدين · وهذا ما عبر عنه الكاتب الانجليزى ستيفن نايت بقوله :

« لقد سقط كل ما كتب تقريبا حتى اليوم عن علاقة الماسونية بالدين فى احدى فئتين : فئة الهجوم على الماسونية من جانب أناس غير ماسونيين أو معادين للماسونية ، وفئة الدفاع عن الماسونية من جانب ماسونيين ملتزمين · ولايوجد فى الحقيقة شىء من جانب الأطراف الخارجية المحايدة »(٢) ·

ويبدو أن السر فى هذه البلبلة التى تثيرها الكتابة عن الماسونية بوجه عام يرجع الى عنصر السرية فى الماسونية · فالذين ينتمون اليها يحرصون على الدفاع عنها بالطبع لتبرير انتمائهم على الأقل ،

والذين يخرجون عليها يحرصون على مهاجمتها ، لتبرير خروجهم عليها · أما الذين لم ينتموا اليها فلا يمكن أن يتوصلوا الى الحقيقة لأنهم لم يعرفوها من الداخل بحواسهم ، ولايملكون الا الموازنة بين الدفاع والهجوم للتوصل الى نقطة ترضى رغبتهم فى المعرفة · ومع ذلك ، كشف تراث الماسونية عبر القرون الماضية عن الكثير من الوثائق ومظاهر التورط فى السياسة بصفة خاصة · ومن نقطة الموازنة بين الدفاع والهجوم هذه ، وكذلك من الوثائق والدراسات التاريخية سنحاول فهم هذه الظاهرة وأسبابها ، وآثارها ، وانتقالها الى البلاد العربية ، مع التركيز على مصر ، بصفتها أول وأكبر بلد عربى عرف نشاطها ·

ربما يكون من الأنسب أن نبدأ بعرض لنوع معين من الكتابة عن الماسونية يتميز بالتركيز الشديد والاحاطة بالموضوع ، وهو النوع الذى نجده فى دوائر المعارف والموسوعات العامة · وقد اخترنا أربع دوائر من هذه : اثنتان تتمتعان بثقة الكثيرين ، والأخريان جديدتان على هذا الميدان ، ولكنهما تحاولان الاستقلال برؤية معينة للأمور · وتشكل هذه الدوائر أو الموسوعات الأربع — فى الوقت نفسه — نوعا من التباين فى الرأى ، المطلوب فى مثل هذه الأحوال · كما تعكس فى مجموعها أهم وجهات النظر المعاصرة فى هذا الموضوع بالذات ، سواء اتفقنا أو اختلفنا معها · وهذه الدوائر الأربع بترتيب اختيارنا لها — على أساس ترتيب ظهورها فى الانجليزية — هى : البريطانية ، الأمريكية ، اليهودية ، السوفيتية ·

يقول محرر مادة « الماسونية » فى دائرة المعارف البرطانية » (طبعة ١٩٨١) ان الماسونية هى التعاليم والممارسات الخاصة بالطريقة الأخوية السرية للبنائين الأحرار والمقبولين (من غير البنائين) · وهى أكبر جمعية سرية فى العالم ، انتشرت بفضل تقدم

الامبراطورية البريطانية ، وظلت أكثر الجمعيات شعبية فى الجزر البريطانية ، وغيرها من بلدان الامبراطورية (سابقا) وقد نشأت من النقابات التى ألفها البناؤون عندما تولوا بناء القلاع والكاتدرائيات فى العصور الوسطى · ولما توقف بناء الكاتدرائيات بدأت بعض محافل البنائين العاملين فى قبول أعضاء فخريين لمنع تدهور الاقبال على عضويتها نتيجة توقف عمليات البناء · ومن هذه المحافل نشأت الماسونية الحديثة النظرية أو الرمزية · وبدأت بممارسات ورموز النقابات العاملة القديمة ، ولكنها مالبثت أن اتخذت فى القرنين السابع عشر والثامن عشر شعائر وتقاليد الطرق الدينية القديمة والأخوة الفروسية · وفى سنة ١٧١٧ تأسس المحفل الأكبر ، وهو رابطة تجمع جميع المحافل فى انجلترا ، ثم انتقلت فكرة المحفل الأكبر الى البلدان الأخرى ·

ويضيف المحرر أن الماسونية واجهت — منذ بدايتها تقريبا — معارضة شديدة من الأديان المعروفة ، ولاسيما من الكنيسة الكاثوليكية الرومانية · ولم تلبث أن منعت فى الاتحاد السوفيتى والمجر وبولندا وأسبانيا والبرتغال وأندونيسيا ومصر وغيرها · ولكن الماسونية ليست مؤسسة مسيحية كما فهمت خطأ فى كثير من الأحوال · فهى تضم كثيرا من عناصر الأديان وتعاليمها ، وتحض على الاخلاق والاحسان وطاعة قانون البلاد · ويشترط فى طالب عضويتها أن يكون ذكرا بالغا مؤمنا بوجود كائن أسمى ومؤمنا أيضا بفناء الروح · ومع ذلك اتهمت بعض المحافل بالتحيز ضد اليهود والكاثوليك وغير البيض · وقد اجتذبت فى البلاد اللاتينية المفكرين الأحرار والمعادين للأديان ، على حيث اجتذبت فى بريطانيا وشمال أوربا والبلاد الأنجلو سكسونية كثيرين من البروتستانت البيض[٣] ·

وفى موضع آخر يذكر المحرر أن المحافل الماسونية ازدادت فى

ايطاليا فى نهاية القرن الثامن عشر مما أدى الى ازدياد الرغبة فى النقاش السرى لمشكلات مختلفة • وحين قامت الثورة الفرنسية فى القرن ذاته لم يؤيدها جميع الماسونيين وكانت لهم مطالب ديمقراطية فى بولونيا وميلانو ونابلى فى ايطاليا ، حيث ازداد عدد المفكرين الأحرار المؤيدين للجمهورية فى فرنسا ، وان كانت الحكومات الايطالية أجمعت على معارضة فرنسا وثورتها • ولكن لم تلبث محافل نابولى أن أيدت الثورة الفرنسية ، ثم بدأت الأنشطة السرية والمؤامرات السياسية فى الظهور حتى راح ضحيتها الكثيرون ، وهاجر بعض أعضاء المحافل الى فرنسا(٤) •

فى موضوع آخر أيضا يقول المحرر أن ظهور الجمعيات السرية ، ولاسيما الماسونية ، ازداد فى بولندا فى الفترة من ١٨١٩ الى ١٨٢٥ بسبب اعتداء الملك اسكندر الأول على الدستور أكثر من مرة • ثم ازداد ظهور هذه الجمعيات فى المدن البولندية الأخرى(٥) • ويقول فى موضع رابع أن الماسونيين فى روسيا شاركوا خلال القرن الثامن عشر فى الانفتاح على العلوم والمعارف ، وتبنوا تيارا اصلاحيا واضحا(٦) •

أما « دائرة المعارف الأميركية » (طبعة ١٩٨٣) فيقول محرر مادة « الماسونية » انها اسم ودى لجمعيات تطوعية من الرجال تستخدم أدوات البنائين كرموز فى تلقين الحقائق الأخلاقية الأساسية التى تؤكد أبوة الله وأخوة البشر • ومن قواعدها الا تدعو أحدا للانضمام اليها ، وانما يتقدم الطالب عن طريق عضو عامل • وهدفها الأول أن تخلق رابطة أخوية عالمية بين البشر الخيرين • وهى تعلم أعضاءها الاعتناء بمهاراتهم وتحسينها ، وخدمة الغير وحسن معاملتهم • ومع انها ليست جمعية دينية فهى دينية من حيث أن أفكارها تتضمن أسس كثير من الأديان ، فضلا عن أن اجتماعاتها

تبدأ وتنتهى بصلاة • وهى أيضا ليست جمعية سرية كما يزعم البعض أحيانا لأنها لاتخفى وجودها وأهدافها وعملها • وتتوحد محافلها عادة تحت اشراف محفل كبير فى كل بلد أو ولاية أو وحدة سياسية • ولكن لاتوجد سلطة ماسونية مركزية على مستوى العالم أو فى أمريكا أو كندا ، وانما يوجد فى العالم كله نحو خمسة ملايين ماسونى معظمهم فى الولايات المتحدة (٥ر٣ ملايين) وينضم اليها أعضاء من مختلف الأديان والجنسيات • فهى دولية وديموقراطية بالرغم من انها انتقائية فى عضويتها • وقد انضم اليها ١٤ رئيسا أمريكيا ابتداء من جورج واشنطن الى جيرالد فورد (نسى المحرر اضافة رونالد ريجان) •

ويضيف المحرر أن كثيرين من المشاهير فى العالم انضموا الى الماسونية ، مثل الموسيقار موتسارت ، والممثل جون وين ، والجنرال ماك آرثر والمليونير هنرى فورد • وكان أول كتاب فى العالم الغربى عنها من تأليف بنيامين فرانكلين • ومع أنها دخلت الولايات المتحدة سنة ١٧٢٥ فقد تعرضت سنة ١٧٣٠ لأزمة نتيجة اختفاء أحد العمال فى نيويورك واتهام الماسونيين باخفائه • وبسبب هذه الأزمة تكون حزب معاد للماسونية ، وأغلقت محافل كثيرة ، وانفض كثيرون عن الماسونية حتى هزم الحزب المعارض لها فى انتخابات ١٨٣٢ فخفت حدة العداء ، واستأنفت المحافل نشاطها سنة ١٨٤٠ • ثم ازداد نموها حتى أصبحت اليوم تتصل بمنظمات خاصة للنساء والبنات والأولاد بعد أن كانت قاصرة على الرجال • بل أصبحت تملك مستشفيات ودور رعاية ومؤسسات عيون وبنوك دم ، وتقدم منحا دراسية للطلاب(٧) • (من أبناء الماسونيين بالطبع) •

وأما « دائرة المعارف اليهودية » فيقول محرر مادة « الماسونيون » أنهم أعضاء جمعية سرية نشأت من روابط المهنيين التى كانت تتكون أساسا من البنائين • ومنذ القرن السابع عشر

ظهرت هذه الجمعية كمؤسسة اجتماعية ، وأسست مبادئها وكلمات سرها ورموزها وشعائرها التى يعتقد أنها مستمدة من شعائر بناء أول معبد فى القدس · وقد بدأت الماسونية الحديثة فى انجلترا سنة ١٧١٧ ثم انتشرت فى القارة الأوربية · وكانت المحافل تعد نفسها مرتبطة بأخوة واحدة · فاذا أتاها عضو من أى محفل بشهادة عضويته وكان يستحق المساعدة تلقى مساعداتها على الفور · وكانت تسمح بالتحاق أى شخص صادق وشريف من أى ملة عن طريق الترشيح والاختيار · وكان دستورها يقضى بأن يلتزم العضو « بذلك الدين الذى يوافق عليه جميع البشر محتفظين لأنفسهم بآرائهم الخاصة » كما يقضى بأن يعلن العضو تسامحه الدينى على أساس الاعتقاد بالله والكائن الأسمى · وليس من المعروف ما اذا كان اليهود أثروا فى تشكيل الدستور وصياغة مواده · « ومع ذلك صيغ بطريقة تسمح بعضوية اليهود » · ولذلك تم قبول أحد اليهود سنة ١٧٣٢ فى أحد محافل لندن حين طلب الالتحاق · « وظلت أبواب المحافل الانجليزية مفتوحة أمام اليهود من ناحية المبدأ بالرغم من وجود تمييز من الناحية العملية » ·

يقول المحرر أيضا أن اليهود انضموا الى المحافل الماسونية فى منتصف القرن الثامن عشر ، لا فى انجلترا وحدها وانما فى هولندا وفرنسا وألمانيا أيضا · وفى عام ١٧٩٣ أسس يهود لندن محفلا يهوديا أطلقوا عليه اسم « محفل اسرائيل » ومع ذلك أصيب التسامح الماسونى بالضعف نتيجة هجوم القطاعات التقليدية من جميع الأديان على الماسونية وتشككها فى نواياها النهائية · فقد حرمتها الكنيسة الكاثوليكية - ومازالت - فى اعلان أصدره البابا كليمنت السابع سنة ١٧٣٨ · وشكك فيها البروتستانت واليهود المحافظون · ورد الماسونيون باعتذار حاولوا فيه البرهنة على أن الماسونية ليست مؤسسة معادية للمسيحية ، وأنها لاتقبل الا

المسيحيين ، أما اليهود والمسلمون والوثنيون فليسوا أهلا لها · « ومع ذلك لم يحدث أى اعتراض من ناحية المبدأ على طالبى العضوية من اليهود فى انجلترا وهولندا · أما فى فرنسا فقد أوقفت الثورة هذه الاعتراضات · وبذلك أصبحت الماسونية هناك نوعا من الكنيسة العلمانية يشارك فيها اليهود بحرية · فأدولف كريميو (المحامى والوزير اليهودى الصهيونى الفرنسى) لم يكن ماسونيا منذ شبابه الباكر وحسب ، بل أصبح فى سنة ١٨٦٩ الأستاذ الأعظم للمحفل الأكبر على الطريقة الاسكتلندية فى باريس » ·

ويمضى المحرر اليهودى فيقول ان دخول اليهود المحافل الألمانية ظل أمرا مختلفا عليه طوال أجيال ، وانهم ظلوا ينضمون للمحافل كلما خرجوا من ألمانيا فى سفر الى هولندا وانجلترا وفرنسا قبل الثورة ١٧٨٩ · وحين غزا بونابرت ألمانيا بجيوشه أنشأت هذه الجيوش عددا كبيرا من المحافل فى ألمانيا · بل تأسس فى فرانكفورت محفل يهودى باسم « الفجر الوليد » · واعتمده محفل الشرق الأكبر فى باريس سنة ١٨٠٨ ، مما أحنق بعض المحافل الأخرى فى ألمانيا ضد اليهود فعدلت دساتيرها من أجل استبعادهم من عضويتها · ثم احتج المثقفون الماسونيون الألمان فى ثلاثينات القرن التاسع عشر على استبعاد اليهود ، وساندهم فى ذلك ماسونيون من هولندا وانجلترا وفرنسا ، بل من نيويورك · وفى سنة ١٨٤٨ سمحت بعض المحافل الالمانية بدخول اليهود كزوار على الأقل · ثم جاءت ثورة ١٨٤٨ فشطبت بعض الفقرات التى تستبعد اليهود فى دساتير المحافل واعترفت المحافل الألمانية بمحفل الماسونيين اليهود فى فرانكفورت · وظل موقف اليهود بين الشد والجذب حتى هبت ريح العداء للسامية على رايخ بسمارك فاتخذتها المحافل الألمانية سنة ١٨٧٦ سياسة لها نحو اليهود · وظل الصراع قائما بين الطرفين طوال القرن الماضى ·

يقول المحرر أيضا فى هذا العرض التاريخــى ان اليهـود والماسونيين اتهموا فى ألمانيا خلال ستينات القرن الماضى بتخريب المجتمع التقليدى وتدميره . ثم انتقل هذا العداء الى فرنسا فظهرت كتب كثيرة تؤكد « الخطر اليهودى الماسونى » ولعبت فكرة التعاون السرى بين اليهود والماسون دورا مشبوهـا فى قضـية دريفوس (الضابط اليهودى الفرنسى الذى اتهم بالخيانة فى الحرب مع ألمانيا سنة ١٨٧٠) وأصبحت احدى بدهيات العداء للسامية . كما تضمن كتاب « بروتوكولات حكماء صهيون » – الذى نشر فى روسيا لأول مرة سنة ١٩٠٤ – فكرة مؤامرة يهودية ماسونية للسيطرة على العالم . وكانت الماسونية فى ألمانيا حتى ذلك التاريخ تعد عند معظم الدوائر جمعية محافظة ومعادية للسامية الى حد ما . فلما ترجمت البروتوكولات الى الألمانية والانجليزية فى عشرينات هذا القرن عد اليهود والماسونيون عملاء سريين تسببوا فى اشتعال الحرب الأولى وهزيمة ألمانيا . وأصبح شعار « اليهود والماسون » صيحة حرب عند اليمين الألمانى ، استغلها هتلر فى صعوده الى السلطة . وخلال الحرب الثانية اضطهد النازيون الشيوعيين والماســون واليهود معــا .

وينتقل المحرر بعد ذلك الى الولايات المتحدة الأمريكية فيقول « ان الأسماء اليهودية تظهر فى قوائم مؤسسى الماسونية فى أميركا ، والحق أن اليهود هم فى الغالب أول من أدخل الحركة هناك » . ويضرب أمثلة عديدة على ذلك(٨) . من بينها مثال موسى مايكل هيز الذى أدخل الطريقة الاسكتلندية الى الولايات المتحدة ، وعين سنة ١٧٦٨ نائب مفتش عام على الماسونية فى أميركا الشـمالية كلها ، ونظم محفل الملك داود فى نيويورك ثم نقله الى نيوبورت سنة ١٧٨٠ ، ثم شغل درجة البناء الأكبر للمحفل الأكبر فى ماساتشوستش من

١٧٨٨ الى ١٧٩٢ . وقد بلغ من ايمان اليهود بالماسونية فى ذلك الوقت انهم استخدموا شعائرها فى الاحتفال بوضع حجر الأساس للمعبد الجديد الذى أقاموه سنة ١٧٩٣ بمدينة تشارلستون فى ولاية ساوث كارولينا . أما مابعد ذلك فلا يظهر لليهود أثر كبير كهذا فى أميركا . ولكنهم حملوا المحفل الأكبر فى نيويورك سنة ١٨٤٣ على توجيه رسالة الى المحفل الأم فى برلين بالشكوى من رفض المحافل الألمانية قبول اليهود المسجلين فى المحفل الاميركى بسبب يهوديتهم . وقد ظلت الماسونية الأميركية على ولاء لمبدأ العلمانية فى شئون الدين ولم يحدث أن استبعدت اليهود فى يوم من الأيام . بل ان طابع السرية والشعائر والملابس الخاصة الذى ميز محفل بناى بريت فى سنواته الأولى كان يعكس تأثير الممارسات الماسونية عند اليهود ، ورغبتهم فى تقديم بديل ماسونى داخل الجماعة اليهودية هناك .

يختتم المحرر هذا العرض الذى استطردنـا فيه معه لجـدة معلوماته على الموسوعات المشابهة ، فيتحدث عن الماسـونية فى اسرائيل . ويقول ان القدس تعد عند الماسـونيين مسـقط رأس الماسونية منذ اقامة معبد الملك سليمان ، ولكن المحافل لم تعرف هناك الا فى منتصف القرن الماضى . فقد تأسست خلال الحكم العثمانى ستة محافل فى فلسطين كان أولها فى القدس فى مايو ١٨٧٣ على شريعة المحفل الأكبر فى كندا . ثم ازداد عدد المحافل مع الزمن حتى تشكل المحفل الأكبر المتحد سنة ١٩٥٣ من جميع المحـافل العاملة التى بلغ عددها ٦٤ محفلا سنة ١٩٧٠ . وتضم هذه المحافل ٣٥٠٠ عضو عامل من اليهود والمسلمين والمسيحيين والدروز(٩) .

وأخيرا نصل الى « دائرة المعارف السوفيتية الكبرى » (طبعة ١٩٧٧) . وفيها يقول محرر مادة « الماسونية » انها حركة دينيـة وخلقية تدعو الى وحدة البشر على أساس الاخاء والحب والمساواة

والعون المشترك · وعلى هذا الأساس من أفكار البورجوازية دخلتها عناصر صوفية · ثم ينقل المحرر عن الواعظ اللندنى الماسونى جيمس أندرسن فى كتابه « الدساتير » (صدر سنة ١٧٢٣) قوله : « ان الماسونى كان يلقن ألا يكون كافرا غبيا ، وألا يكون مفكرا حرا غير متدين » ، وأن يحترم السلطات المدنية وألا يشترك فى الحركات السياسية · ولأن الماسونيين رفضوا المعتقدات الكنسية الجامدة فهم يحترمون الله كمهندس أعظم للكون ، ويتسامحون مع أى دين ، ويخاطب بعضهم بعضا بكلمة « الأخ » · ولهم درجات أساسية فى المحافل مثل : التلميذ أو الطالب أو المريد أو الصبى ، زميل الصنعة أو الشريك ، الأستاذ أو البناء أو « الأسطى » ، الأستاذ الأكبر أو كبير الاسطوات » اذا شئنا كلمة عامية أخرى · كما أنهم يستخدمون أدوات البناء الرمزية مثل القدوم والفرجار والبوصلة والمرولة والقفافيز ·

ويضيف المحرر أن الماسونية كانت تهدف الى توحيد العالم فى اتحاد أخوى دينى ، ثم اتخذت طابعا ارستوقراطيا فى أوربا ، وازداد الحاحها على الصوفية بدلا من العقلانية · ولكن دورها ونشاطها يختلفان من بلد الى بلد ومن عصر الى عصر · وكان أنصارها يضمون ملوك بروسيا (فردريك الثانى والثالث) وانجلترا (جورج الرابع وادوارد السابع والثامن) والسويد (جوستاف الثالث) ، فضلا عن رؤساء الولايات المتحدة مثل واشنطن وترومان ، والساسة مثل تشرشل ، والفلاسفة والأدباء مثل فولتير وفخته (الألمانى) وجوته وتورجنيف ، والفنانين مثل موتسارت وهايدن · وقد حاول أنصارها فى ايطاليا وبولندا ، منذ مطلع القرن الماضى أن ينقلوا نشاطها الى السياسة والتآمر بعد فترة كان البابوات قد أصدروا خلالها عددا من المنشورات التى تدين الماسونية وترمى أعضاءها بالالحاد ·

يقول المحرر أيضا أن روسيا لم تعرف المحافل الماسونية قبل ثلاثينات القرن الثامن عشر · ومع ذلك قامت هذه المحافل بدور بارز فى المعارضة السياسية ، واستقطبت كثيرا من المثقفين ، وتفاوت فكر أصحابها بين الثورية والاصلاح والمحافظة ، حتى منعت فى روسيا كلها سنة ١٧٩٢ عند قيام الثورة الفرنسية (١٧٨٩) ثم عادت الى الظهور فى عهد القيصر اسكندر الأول ، ولكن تحت رقابة الحكومة · ومع ذلك لم تكف عن التآمر وتشجيع حركة « الديسمبريين » المعارضين للقيصر · ثم انفصل عنها أصحاب هذه الحركة فى بداية عشرينات القرن الماضى ، وتعرضت للمنع مرة أخرى سنة ١٨٢٢ · وبرغم عودتها ـ حتى منعها نهائيا بعد ثورة ١٩١٧ ـ لم تلعب دورا يذكر فى تاريخ الفكر الروسى(١٠) ·

ماذا نستخلص من هذا العرض الموجز الذى حاولنا فيه تفادى تكرار المعلومات المحتمل فى مثل هذه الحالة ؟

يمكن أن نستخلص أمورا كثيرة فى الحقيقة ، ولكننا نجمل هذا الكثير فى نقاط محددة أهمها مايلى :

١ ـ **نشأت الماسونية فى انجلترا** متأثرة بالشكل التنظيمى لنقابات البنائين · ويلاحظ أن هذا الشكل التنظيمى ذاته لم يكن قاصرا على انجلترا أو أوربا ، وانما كان معروفا فى الشرق · فقد كانت الحرف فى مصر خلال العصور الوسطى وحتى القرن الحالى ـ على سبيل المثال ـ تنظم فى أشكال وأوعية تنظيمية شبه مغلقة · وكان لكل حرفة كبير أو شيخ يتبعه « أسطوات » وصبيان أو مساعدون ، ينتمون اليه عادة بصلة القرابة ، حفاظا على سر المهنة من الضياع · وهكذا انتفعت الماسونية بما كان معروفا عند أصحاب حرفة البناء من التخفى والتعاون والمحافظة على سر المهنة · ولعلها كانت أمينة فى

احتفاظها ببعض رموز البناء ودرجات العاملين فى حرفته ٠ أما ما يقال فى كثير من الكتب الماسونية عن قدم الفكرة وممارستها قبل ظهورها فى انجلترا فأمر لايوجد عليه أى دليل أو مستند تاريخى ، بالرغم من أن الجمعيات السرية أقدم من التاريخ ذاته فى الغالب ٠ ومن انجلترا انتقلت الماسونية الى البلدان الأخرى فى أوربا ، ثم انتشرت عن طريقها فى مستعمراتها ٠

٢ ـ **تعد الماسونية أكبر جمعية سرية فى العالم** كما قال محرر الدائرة البريطانية ، وان كان محرر الدائرة الأميركية ينكر هذه السرية بدعوى أن الماسونية لاتخفى وجودها وأهدافها وعملها ٠ واذا صح ذلك فلماذا تحرص المحافل على طابع السرية فيما يتصل بالشعائر وعدم دخول الغرباء على الأقل ؟ واذا صح ذلك أيضا فلما لاتصبح المحافل مثل الأندية ذات العضوية الخاصة ؟ واذا صح ذلك مرة أخرى اليوم فلم يكن صحيحا بالأمس ، لا فى انجلترا ولا فى بلدان أوربا والشرق الأوسط ٠ ومن الملاحظ أن الماسونية فى أميركا بالذات بدأت فى التحرر فى بعض النواحى ٠ فالمحافل الأميركية هى الوحيدة فى العالم تقريبا التى فتحت بعض أبوابها للنساء والصبيان والبنات ، وبدأت تمارس نشاطا اجتماعيا واضحا ٠ ومع ذلك تظل اجتماعاتها مغلقة ومناقشاتها سرية ٠ فهل لزمت الماسونية السرية حتى تثير فى طالبيها الفضول لمعرفة الأسرار ؟ لو كان الأمر كذلك لفتحت عضويتها لمن يتقدم لا لمن يرشحه عضو عامل أو أكثر ٠ ومن الملاحظ أيضا أن أى انحراف للماسونية ـ حتى من وجهة نظر أنصارها ـ كان ومازال يرجع الى طابع السرية فيها ٠ وكانت هذه السرية مغرية جدا فى كثير من الأحوال فى ظل الأنظمة الدكتاتورية والشمولية ، مغرية بالتآمر والجرائم ، لسبب بسيط هو أن المحافل هى الجمعيات السرية الوحيدة المصرح بها فى البلاد التى تحتضنها ٠

وستظل هذه السرية ، سواء كانت صحيحة أو مزعومة ، مكمن الخطر دائما فى الماسونية ، أو مكمن الشبهة على الأقل ٠

٣ ـ **تصر الماسونية على عنصر الدين** بمعنى أنها تدعو أعضاءها الى أن يكونوا على دين من جهة ، وأن يتفقوا على أن الكون يسيره مهندس أو بناء أعظم ٠ ولكنها فى الوقت نفسه تصر على عدم الخوض فى الدين أو السياسة ٠ فكيف يتفق هذا مع ذاك ؟ واذا كانت الأديان المعروفة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فما هو الجديد الذى تقدمه الماسونية ؟ هل فرغ أنصار هذه الأديان من تحقيق المعروف والخير والقضاء على المنكر والبغى حتى يتطلعوا الى أهداف أخرى ؟ واذا كانت الماسونية فى الماضى والحاضر قد انتشرت هذا الانتشار وأغرت الملوك والرؤساء والقواد وأولى الحل والعقد بالانتماء اليها فهل استطاع هؤلاء أن يقدموا من خلالها خدمة واحدة للبشر ؟

هل استطاعت « الأخوة الماسونية » أن تمنع حربا أو تحل مشكلة تمس الوجود البشرى على ظهر الأرض ؟

لاشك أن عمل الخير كثير الأبواب ، ولكن الانسان العادى حين يقرأ أو يسمع عن تلك الأسماء الرنانة ، داخل المحافل الماسونية ، يتوقع من أصحابها شيئا أكبر من بناءمستشفى أو التبرع بمنحة دراسية لطالب أو زجاجة دم لجريح ٠ أما ملاحظة محرر الدائرة الأمريكية أن الماسونية ليست جمعية دينية ، ولكنها دينية المبادىء ، فلا تحل المشكلة ولاتجيب عن هذه الأسئلة ٠

٤ ـ **دخلت الماسونية أمريكا على أيدى اليهود** ٠ ومعنى هذا أن اليهود أدخلوها كأقلية حتى يصنعوا لأنفسهم نوعا من المظلة الواقية ٠ فمن الواضح من العرض السابق أن الماسونية ـ فكرة

وتطبيقا ـ نشأت بدافع أساسى ، هو خدمة أقلية معينة تمثل مجموع أعضائها ، حتى حين بدأت كنقابة ـ أو مايشبه النقابة ـ للبنائين القدماء • ولايمكن تصورها ـ حتى اليوم ـ خارج نطاق الأقلية ـ فهى تنظيم للاقلية بحكم النشأة والممارسة • وليس من المستبعد أن يكون لليهود دور فى نشأتها القديمة أو الحديثة ، وفى توجيه بعض محافلها لخدمة أغراضهم كأقلية • فهذا كله أمر طبيعى لايستبعد ولايستغرب • بل يوحى به قول محرر الدائرة اليهودية ان دستور الماسونية قد صيغ بطريقة تسمح بعضوية اليهود • فلماذا اذن لا يحتمل أن يكون لليهود ضلع فى هذا الدستور ؟ لقد واجهوا ـ عبر تاريخهم الطويل ـ اضطهادا مريرا فلماذا لا نتوقع منهم أن يعملوا على حماية أنفسهم بمختلف الوسائل ، وأن ينشطوا داخل المحافل ؟

لقد ذكر المحرر اليهودى اسم أدولف كريميو (١٧٩٦ ـ ١٨٧٤) الذى مر بنا • وهذا الرجل يحتل عند اليهود والصهاينة مكانة مرموقة • ولانعتقد أنه كان ليتأخر عن خدمة بنى ملته عن طريق نفوذه ودرجته فى الماسونية • فقد كان أيضا رئيسا للطائفة اليهودية فى باريس • وهذا أمر طبيعى يتساوى تماما مع استغلال الايطاليين والبولنديين للمحافل الماسونية فى بلادهم ، ونجاحهم فى تحويلها الى خلايا سياسية وتآمرية لخدمة أهدافهم • فمن حق أى جماعة اذن أن تستغل الماسونية ـ أو غيرها ـ مادامت تشكل فيها مركز قوة • وسوف نرى كيف استطاع اليهود والصهاينة فى مصر أن ينتفعوا بمركز القوة الذى حققوه فى المحافل الماسونية •

٥ ـ **تعد الماسونية فى النهاية ظاهرة نسبية** ، تختلف فى نشأتها وتطورها من بلد الى بلد ومن عصر الى عصر • بل ان سريتها أو علنيتها كانت دائما مسألة نسبية أيضا تحددها التيارات السائدة فى المحافل واتجاهات الريح السياسية فى الدولة •

وفى هذه النقاط الست تتلخص التجربة أو الظاهرة الماسونية •

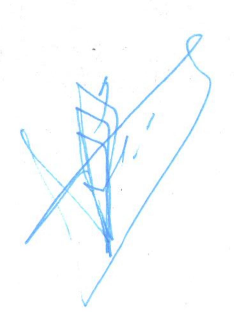
ولكن هناك تجربة أخرى للماسونيين أنفسهم مع مصر ، وهى تجربة من طرف واحد ، أشار اليها الباحث الانجليزى مارتن برنال فى كتابه « أثينا السوداء » • فقد ذكر أن الماسونيين الأوربيين تبنوا فى القرن الثامن عشر كثيرا من أفكار اليونان القديمة عن مصر • بل اهتموا بمصر منذ العصور الوسطى ، وعدوها مهبط الهندسة والبناء • وعندما تكونت الماسونية التأملية فى بداية القرن ١٨ اتخذوا مصر نموذجا لعقيدتهم ، وجعلوا رموزهم شبيهة باللغة الهيروغليفية ، ومحافلهم شبيهة بالمعابد الفرعونية ، بل جعلوا أنفسهم أشبه بالكهنة المصريين القدماء ، فى الوقت الذى أسقط فيه الأكاديميون فى أوربا مصر ـ من حسابهم ـ كمعلم لليونان • وعندما أخذ الماسونيون بعض تعاليمهم وأساطيرهم من الفينقيين لم يسقطوا مصر من حسابهم • فهم يسمون الله باسم مركب من مقاطع هو «يعبلون» Jabulon المقطع « يا » اختصار لكلمة « ياهوه » اله اسرائيل ، والمقطع « بول » تحريف لكلمة « بعل » اله الكنعانيين ، والمقطع « أون » هو الاسم العبرى لمدينة « عونو » المصرية القديمة المعروفة عند الاغريق باسم « عين شمس » • وكانت هذه المدينة ـ عند القدماء ـ مركز العلم ومهبط الحكمة الباطنية وعبادة الشمس[11] •

معنى هذا أن الماسونيين الأوربيين الأوائل لم يخفوا اعتزازهم بمصر فى الوقت الذى كانت فيه الدوائر الجامعية الأوربية تعتز باليونان ، وتعدها مصدر المعرفة والحضارة • وترتب على الاعتزاز الماسونى أن المعابد الماسونية مازالت تقام حتى اليوم على صورة المعابد الفرعونية ، ومازالت رموزهم أشبه بالهيروغليفية، مثل الأهرام والعين اللذين يتصدران ـ حتى اليوم ـ خاتم الولايات المتحدة الرسمى وعملتها الورقية • وكان مصدرهم فى هذا كله كتاب Séthos

للأديب الفرنسى الأب تيراسون الذى راج فى أوربا خلال القرن ١٨ ، وصار مصدر عدد من المسرحيات والأوبرات مثل « الناى السحرى » لموتسارت ٠ ومع أن هذا الكتاب اتخذ الشكل القصصى فقد صار مصدر التاريخ الماسونى وأساطير الماسونية وشعائرها لأن معلوماته عن مصر القديمة كانت شديدة الغنى والطرافة وقت ظهوره ٠

وقد ظهر الكتاب عام ١٧٣١ بعنوان « سيتوس » وتحته عنوان آخر فرعى هو « تاريخ وحياة مستقيان من الآثار : حكايات من مصر القديمة » ٠ أما سيتوس فهو أمير مصرى ، ولد قبل حرب طروادة ، وأنجب رمسيس الثانى ٠ وهو أيضا بطل هذه الرواية التعليمية الشبيهة برواية « تليماك » لفنيلون التى ترجمها رفاعة الطهطاوى فى منتصف القرن الماضى ٠ ولكن رواية سيتوس أو سيتى هذه تلح على فكرة تفوق المصريين على الاغريق ، وتأثيرهم الكبير عليهم ، فى مجالات السياسة والفلك والهندسة والحساب ٠ كما تلح على فكرة تأثر الفينيقيين بالحضارة المصرية القديمة(١٢) ٠

وهكذا ساهمت مصر — دون أن تدرى أو تقصد — فى بناء الماسونية العملية يوم أقامت بناياتها الضخمة مثل المعابد والأهرامات ثم ساهمت فى بناء الماسونية التأملية والرمزية يوم أتاحت لأنصارها الكثير من مظاهر التفوق الحضارى والثقافى القديم ٠



الفصل الأول

مرحلة التأسيس

تروى بعض المصادر أن مصر عرفت الماســـونية بمدينــة الاسكندرية عام ١٧٤٧(١٣) • ولكن هذه الرواية ضعيفة • فالمشهور والمتواتر أن مصر عرفت المحافل الماسونية عقب غزو بونابرت سنة ١٧٩٨ • وكان جرجى زيدان أول من أرخ فى العربية لتاريخ هذه المرحلة • وعنه نقلت جميع المصادر العربية التالية بعد صدور كتابه « تاريخ الماسونية العام » سنة ١٨٨٩ •

وقسم زيدان تاريخ الماسونية فى مصر الى طورين على نحو مايفعل المؤرخون الأوربيون : الطور العملى المتصل بتكوين منظمات البنائين الفعليين أو نقاباتهم ، والطور الرمزى المتصل بالمحافــل الحديثة التى أخذت رموزها عن البنائين القدامى • و عد الماسونية قديمة العهد فى مصر من حيث طورها العملى ، « لأن الجمعيــات المصرية السرية كانت تعلم مايقرب كثيرا من تعاليم الماسونية » • وهذه الجمعيات قديمة فى رأيه ، ترجع الى عهد بناة الأهــرامات والمعابد الضخمة • ومع ذلك جاءت الماسونية الى مصر بعد ذلك من الغرب فى العصور الوسطى ، « حيث عهدت الحكومة المصرية فى عهد الخلفاء الى فئات منهم هندسة وبناء كثير من الجوامــع والقلاع والأسوار » وضرب مثالا على هذا بجامع أحمد بن طولون فى القاهرة الذى عهد ببنائه الى جماعة من البنــائين النصــارى القادمين من أوربا(١٤) • ولكن اذا صح أن هؤلاء البنائين كانوا من

أوربا فليس من المؤكد أنهم كانوا ماسونيين بالمعنى المعروف ٠ ولا توجد أدلة على ذلك ، ولا على قدم عهد الجمعيات الماسونية فى مصر ، ولا على صلتها بالجمعيات السرية القديمة ٠ والأمر كله محض تخمين واستنتاج من جانب زيدان الذى بدا متحمسا فى كتابه للماسونية ٠

تناول زيدان بعد ذلك الطور الرمزى فى الماسونية المصرية ، وهو الطور الحديث بوجه عام عند مؤرخيها الأوربيين ٠ وقال ان هذا الطور لم يظهر فى مصر « قبل سنة ١٧٩٨ أى أثناء الحملة الفرنساوية » على حد تعبيره(١٥) ٠ فقد اتفق بونابرت وكليبر وبعض قواد تلك الحملة وضباطها من الماسونيين الفرنسيين على تأسيس محفل فى القاهرة ، فأسسوه فى أغسطس من تلك السنة باسم « محفل ايزيس » على طريقة ممفيس ٠ « ولعلهم ـ كما يقول زيدان ـ قصدوا بذلك مقصدا سياسيا لأنهم أدخلوا فيه كثيرا من عمد البلاد ورجالها » ٠ ثم توقف نشاط المحفل بعد رحيل بونابرت ومصرع كليبر(١٦) ٠

ومضى زمن طويل قبل أن تتكرر المحاولة ٠ ففى سنة ١٨٣٠ أسس بعض الايطاليين فى الاسكندرية محفلا على الطريقة الاسكتلندية ٠ وتلاه محفل آخر فى القاهرة سنة ١٨٣٨ تحت رعاية المجلس العالى الممفيسى الفرنسى ، واسمه مينيس ٠ وفى سنة ١٨٤٥ شهدت الاسكندرية تأسيس محفل تحت رعاية الشرق الأعظم الفرنسى اسمه « الأهرام » ، انضم اليه كثيرون من الأجانب والاهالى تحت سمع وبصر الحكومة ٠ وله الفضل الاعظم فى بث التعاليم الماسونية فى مصر كما يقول زيدان ٠ وأبرز أعضائه من غير الأوربيين الأمير حليم ابن محمد على والامير عبد القادر الجزائرى الذى قاد ثورة الجزائر ضد فرنسا عند غزوها لبلاده ثم فر الى مصر ، وأقام

بعدها فى الشام ٠ وقد اشتهر هذا المحفل ـ كما يقول زيدان أيضا ـ بالأعمال الخيرية ، وتزايد أعضاؤه حتى بلغوا ألفا بعد ١٥ سنة من تأسيسه ٠ وفى سنة ١٨٤٩ أسس الايطاليون محفلا آخر على الطريقة الاسكتلندية فى الاسكندرية ٠ وفى سنة ١٨٥٦ بعث المجلس العالى الممفيسى فى فرنسا مندوبا خاصا لانشاء مجلس عال اقليمى على طريقته ومايلزم ذلك من المحافل الفرعية ٠ وفى الوقت ذاته أسس الايطاليون عددا من المحافل فى الاسكندرية والقاهرة بين سنتى ١٨٥٩ ـ ١٨٦٢ ٠ كما أسس الفرنسيون عددا آخر من المحافل التابعة للشرق الأعظم الفرنسى ، ولم يقتصروا على القاهرة والاسكندرية ، وانما مدوا نشاطهم الى بور سعيد والسويس والاسماعيلية ٠

وهكذا أصبحت المحافل فى مصر تتبع ثلاثة مجامع أوربية كبرى هى : المجلس العالى الايطالى والمجلس العالى الفرنسى والشرق الأعظم الفرنسى ٠ وفى سنة ١٨٦٧ بدأ الانجليز فى دخول الحلبة ، فأنشأ المحفل الأعظم الانجليزى فى القاهرة بضعة محافل ، ولكن أنصاره لم ينجحوا فى انشاء مجلس أعلى اسكتلندى للاشراف على هذه المحافل ، وكذلك لم ينجح بعض المتحمسين الايطاليين والشوام من أصحاب الدرجات الماسونية العليا فى تأسيس مجلس أعلى مصرى أو شرق أعظم مصرى ٠ ولكن حدث فى ٨ نوفمبر ١٨٧١ أن نجح أنصار الطريقة الاسكتلندية فى انشاء مجلس أعلى اسكتلندى ٠ وفى ١٥ سبتمبر ١٨٧٢ اتحدت بعض المجالس وكونت مايسمى الشرق الأعظم الوطنى المصرى ٠ « وهو الدولة الماسونية المصرية وتحته الطريقة المفيسية (الفرنسية) والطريقة الاسكوتلاندية ولم تمض فترة وجيزة حتى أصبحت المحافل الوطنية المصرية تحت رعاية الشرق الأعظم المصرى عديدة »(١٧) وانتخب أعضاء هذا

الشرق أستاذا أعظم يدعى سوليتـــورى أفنتورى زولا · ثم جددوا انتخابه فى ٢١ مارس ١٨٧٣ · وذهب الى الخديو اسماعيل يطلب حمايته للعشيرة ·

يقول زيدان :

« مثل بين يدى سموه فى ٢٩ أبريل سنة ١٨٧٣ بالنيابة عن الشرق الأعظم · وقدم واجب العبودية · وأعرب عما لهذه العشيرة من المقاصد الحسنة ، وبين أنها فى احتياج كلى لحماية أمير البلاد ، فتعطف سموه اذ ذاك ، وصرح بالحماية مشترطا عليها أن لاتتعاطى أمرا مخالفا لصالح الأمة والدولة والوطن ، وأن لاتتداخل فى السياسة الا اذا دعيت أو دعى بعض أعضائها من أمير البلاد أو حكومته للمساعدة فيما يعود الى الصالح العام ، فعلى المدعو اذ ذاك أن يلبى الدعوة بما فى وسعه حالا · فتعهد الأستاذ الأعظم بالشرف أن الماسونية لاتسير الا كما اشترط سموه · وعلى ذلك تم التعاضد بين الحكومة المدنية والدولة الماسونية · وأصبحت القوتان يدا واحدة فى ترقية شأن الأمة ورفع منار الفضيلة »(١٨) ·

ولعلنا لاحظنا فيما اقتبسناه حتى الآن من زيدان أنه لم يكن محايدا فى تأريخه ، وأنه كان ماسونيا متحمسا وقت تأليفه لهذا التاريخ · ومع ذلك يمكن أن نلاحظ مما كتب أن الماسونية أنشأهـــا الأوربيون المستوطنون فى مصر ، وضموا اليها بعض المستوطنين الشاميين وبعض الأهالى المصريين ، كما نلاحظ أن المحافل جاملت الأمير حليم بالرياسة حتى طرده الخديو اسماعيل من مصر سنة ١٨٦٨ ، ثم عهدت الى زولا بالرياسة من بعده حتى طـــرد بدوره وشطب اسمه من سجل الماسونية · وكان السبب فى ذلك ــ كما يقول حنا أبو راشد ــ أنه ذهب الى ايطاليا ، وهناك حمله رجال الفاتيكان

على التشهير بالماسونية(١٩) · ونلاحظ أخيرا أن المحافل حتى ذلك الوقت ــ منتصف سبعينات القرن ــ كانت ايطالية وفرنسية وأيرلندية واسكتلندية وأمريكية ، وأن الطريقتين الرئيسيتين لهذه المحافل كانتا المفيسية والاسكتلندية ·

فى ٨ مايو ١٨٧٦ أصدر الشرق الأعظم الوطنى المصرى ، الذى تقاسمته هاتان الطريقتان ، قرارا بوضع حد لهذا الازدواج وتحديد طريقة واحدة « بحيث تكون وحدها دعامة الدولة الماسونية المصرية » على حد قول زيدان · ولما كانت الطريقة المفيسية الفرنسية الأصل تعد عند أقطاب الماسونية غير أصولية أو قانونية فقد استقر الرأى على الطريقة الاسكتلندية كدعامة للدولة الماسونية المصرية · واذا كان تعبير « الدولة » هنا ، الذى استخدمه زيـدان وغيره ، تعبيرا تضخيميا فلا يهمنا منه سوى معناه المجازى · وقد ترتب على انفراد الطريقة الاسكتلندية باهتمام الشرق الأعظم الوطنى المصرى أن صدر قرار منه بانشاء المحفل الأعظم الوطنى المصرى · ومن الطريف ان نلاحظ فى صيغة القرار الذى أورده زيدان أن زولا يتعامل مع الواقع كما لو كان على رأس دولة فعلية · فهو يسمى القرار « أمر عـــال نمرة ٧٧ » · ويبدؤه بعبارة « نحن زولا أستاذ أعظم الشرق الوطنى المصرى » ويؤكد فى المادة الثالثة من القرار على أن « الشرق الأعظم الوطنى المصرى هو الدولة الماسونية المصرية » ، أى أنه أعلى سلطة ماسونية فى البلاد · ومن الطريف أن نلاحظ أيضا فى موقعى القرار أن ثلاثتهم أوربيون (زولا ونائبه يوسف دى بورغارد ، والسكرتير الأعظم فرنسيس فردينان أودى ، وأمين الختم الأعظم باندلى ديلبا روغلى) وأنهم لايمكن أن يوحوا بأن ذلك الشـرق كان وطنيـــا أو مصريا · أما النص على « الوطنى » و « المصرى » فيبدو أنه كان لتحبيب الأهالى فى الماسونية ·

وبعد أن تم انشاء المحفل الأعظم على هذا النحو تمت مكاتبة الدول الماسونية الأجنبية – كما يقول زيدان – وابلاغها بالقـــرار (أورد زيدان قائمة بنحو ٧٦ محفلا فى مختلف ارجاء العالم) وجاء رد هذه « الدول » الأجنبية بالمصادقة على القرار واعتماده ٠

يقول زيدان أيضا :

« وفى ٨ اكتوبر سنة ١٨٧٦ التأم المحفل الأعظم وكرس بحضور الموظفين والمندوبين من قبل المحافل العظمى الأجنبيـــة ٠ وفى ٢ أغسطس من السنة التالية صدر الأمر العالى نمرة ١٢٦ بتأسيس محفلين عظميين اقليميين ، أحدهما لمصر الوسطى ومركزه طنطا ، والآخر لمصر العليا ومركزه القاهرة ٠ وكلاهما تحت رئاسة الأخ المحترم ايكو مونوبولو بصفة أستاذ أعظم اقليمى ٠ أما مصـــر السفلى فكانت تحت المحفل الأعظم المصرى فى الاسكندرية ٠ وانشئت أثناء ذلك محافل وأوقفت محافل »(٢٠) ٠

وحتى ذلك التاريخ كان المحفل الأعظم الوطنى المصرى هذا يمارس نشاطه من الاسكندرية ، ولكن تقرر فى جلسة ١٥ ســـبتمبر ١٨٧٧ نقل مركزه اله القاهرة ٠ وصدر الأمر العالى بذلك واجتمع المحفل لأول مرة فى القاهرة فى ٥ مايو ١٨٧٨ فى قاعة محفـــل الماراتونا « تحت رئاسة الأستاذ الأعظم الكلى الاحترام زولا » ومنذ ذلك التاريخ أصبحت القاهرة مركز نشاط « الدولة » الماسونية فى مصر ٠

أورد زيدان – فوق هذا كله – قائمة بأسماء المحافل التابعـــة للمحفل الوطنى ٠ وتضم القائمة ٢٩ محفلا أصبح معظمها – حتى ذلك التاريخ – يعمل من القاهرة ، فضلا عما سماه «المحافل والمجامع الأجنبية » فى مصر ، وهذه بلغ عددها فى ذلك الوقت ٩ محافل تابعة للشرق الأعظم الفرنسى ، ٦ محافل تابعة للمحفل الأعظم المتحد

الانجليزى (أقدمها محفل زتلاند فى الاسكندرية الذى تأسس سنة ١٨٦٧) ، ٥ محافل تابعة للشرق الايطالى ، ٧ مجامع (Chapters)

(أى المحافل التى تشتغل بالدرجات الماسونية العليا) تتبع المحفل الأعظم الانجليزى(٢١) ومعنى هذا أن مجموع المحافل العاملة – غير المتعطلة – فى مصر حتى سنة ١٨٧٨ كان يبلغ ٥٦ محفلا ، وهو عدد كبير – بالطبع – اذا قيس بتعداد السكان فى ذلك الوقت الذى كان لايزيد على ٦ر٨١٣ر٩١٩ حسب احصاء ١٨٨٢ ٠ ومن هذا العدد ٢٧ محفلا أجنبيا ، أى للاجانب الأوربيين وحدهم ، مقابل ٢٩ محفلا مصريا ، أى للاجانب المتمصرين والأهالى ٠ وحتى اذا صـــح أن المحافل المصرية كانت مصرية بالفعل فان عدد المحافل الأجنبية يكاد يساوى عددها ، ولا يتفق مع عدد الأجانب ٠

ومن الواضح أن جرجى زيدان توقف فى تأريخه للماسونية فى مصر عند سنة ١٨٧٨ ، أى قبل صدور كتابه بنحو عشر سنوات، دون أن يوضح السر فى توقفه عند ذلك التاريخ ٠ ولكنه أشار فى مقدمته للكتاب الى أنه استقى معظم معلوماته من زولا الذى أصبح وقتها « رئيس أعظم المحافل المصرية سابقا » ، وأنه لو ساعده المقام – على حد تعبيره – لأتى على تفاصيل كثيرة يعلمها ولكنه اضطر الى الاكتفاء بالنزر اليسير منها والاغضاء عن بعضها « لما يحول دون التصريح بها من المحظورات التى نرجو قرب زوالها يوم لايحظر على أحد التصريح بما فى ضميره » على حد تعبيره(٢٢) ٠ ولانريد أن نحمل اعتذاره هذا فوق ما يحتمل ، ولكننا نشم فيه نوعا من الحرج ازاء التصريح بكل ماعنده عن الماسونية فى مصر وسوريا كما قال وأغلب الظن أن هذا الحرج مبعثه أن زيدان نفسه كان ماسونيا عاملا متحمسا حتى وقت تأليفه لهذا الكتاب ٠ والماسونية – بحكم دستورها الأول الذى نقله فى كتابه – تلزم أعضاءها بكتمان أسرارها عمن

ليسوا منها · ومع ذلك لم يكتب زيدان بعدها عن الماسونية فى مجلته « الهلال » أو غيرها ، حتى وفاته سنة ١٩١٤ ، سوى بضعة أسطر فى كتابه « تاريخ مصر الحديث » · فقد قال فى هذا الكتاب ان المحافل الوطنية (الأهلية) تأسست فى عهد اسماعيل ، وان شأن الجمعية الماسونية فى مصر تعزز بحمايته ، فانتشرت مبادئها « حتى انتظم فى سلكها نجله المغفور له الخديو السابق (توفيق) وجماعة كبيرة من أمراء البلاد ووجهائها »(٢٣) وأغلب الظن أيضا أن زيدان مات على ماسونيته التى تمنع التصريح بكل شيء ·

بالرغم من الاجمال والاسقاط فى معلومات جرجى زيدان اللذين اعتذر عن اضطراره اليهما فقد ظل كتابه عمدة المراجع عن تاريخ تلك المرحلة من حياة الماسونية فى مصر · كما ظل نهبا لزملائه الصحفيين والكتاب الذين كانوا يرجعون اليه ، وينقلون عنه ، دون اعتراف بالفضل(٢٤) ومع ذلك حاول بعض الباحثين والمستشرقين المعاصرين أن يعودوا الى تلك المرحلة ، وأن يراجعوا ظروف نشأة الماسونية · ومن هؤلاء الباحث الاسرائيلى يعقوب لاندو والباحثة الايرانية هوما باكدامان اللذين قاما بجهد مكثف فى هذا الميدان ·

يقول لاندو :

« فى سنة ١٨٠٢ تأسس محفل بالاسكندرية ، ثم تلاه آخر بعد أربع سنوات · وكان الاثنان تحت رعاية محفل الشـرق الأعظم الفرنسى · ولكن نشاطهما مالبث أن توقف · ثم نسمع فيما بعد عن تأسيس محفلين فرنسيين آخرين ، أحدهما فى القاهرة سنة ١٨١١ ، والآخر فى الاسكندرية سنة ١٨١٢ · ومع ذلك لم يستمرا طويلا شأن محفل ثالث تأسس سنة ١٨١٥ »(٢٥) ·

ويستمر لاندو فى روايته فيضيف أن بعض الماسونيين الايطاليين رحلوا من ايطاليا عقب فشل الثورة هناك سنة ١٨٣٠ ثم جاءوا الى الاسكندرية ، فأسسوا محفلا معتمدا من الطريقة الاسكوتلاندية فى تلك السنة · وفى سنة ١٨٣٨ أسسوا محفلا آخر بالقاهرة · وتم هذا كله فى سرية تامة خوفا من ملاحقة السلطات المحلية · ثم أعاد الماسونيون الفرنسيون تنظيم صفوفهم فى عهد محمد على فأسسوا محفلا محليا فى الاسكندرية سنة ١٨٤٥ ضم بعض كبراء المسلمين مثل الأمير عبد القادر الجزائرى والأمير حليم · وفى سنة ١٨٦٠ بلغ عدد أعضاء المحافل الفرنسية فى الاسكندرية ألف عضو · كما أعاد الايطاليون تنظيم صفوفهم أيضا ١٨٤٩ ، ونشروا كثيرا من الكتيبات والمنشورات للدعاية للماسونية بلغتهم · ولكن يبدو أن الفرنسيين تفوقوا على الايطاليين فى ذلك · ففى سنة ١٨٥٦ أرسلوا الى مصر وفدا خاصا لتأسيس محفل فى الاسكندرية وسرعان مانشروا — مع الايطاليين — المحافل خارج القاهرة والاسكندرية ، ولاسيما فى بورسعيد والسويس والاسماعيلية والمنصورة(٢٦) ·

واذا كان لاندو قد سد — كما رأينا — الفجوة الزمنية التى جاءت فى رواية زيدان ، من ١٧٩٨ الى ١٨٣٠ ، فلم يضف الكثير بعد ذلك الى ما سبق أن عرضناه من رواية زيدان · ولكنه يستمر فى روايته فيقول ان الفرنسيين أسسوا محفلا جديدا فى الاسكندرية باسم « نهضة اليونان » سنة ١٨٦٣ ، وهى السنة التى تولى فيها الخديو اسماعيل الحكم · وفى السنة التالية أنشأ الايطاليون محفلا آخر بالاسكندرية أيضا باسم « اتحاد الشعب » وفتحوا باب عضويته للاهالى · ويبدو أن بعض الجمعيات الايطالية السرية تنكرت فى ذلك الوقت — كما يقول — وراء المحافل الماسونية · ومع ذلك تأسس محفل ألمانى بالقاهرة سنة ١٨٦٦ ومحفل آخر انجليزى فى السنة التالية نشط فيه رالف بورج نائب القنصل الذى اختار بعض أعضائه من

الأهالى . « وسرعان ما وقع اختيار الماسون الفرنسيين من أتباع محفل ممفيس على الأمير حليم فجعلوه أستاذا أعظم لهم » وخلال السنوات ١٨٧٢ ـ ١٨٧٨ اندمجت معظم المحافل الفرنسية فى محفل الشرق المصرى الكبير بالقاهرة ، مما جعل الماسون قوة يحسب لها حسابها ، حتى فكر الخديو اسماعيل فى استقطابهم عن طريق اظهار الاهتمام بهم ، ومد يد الحماية اليهم(٢٧) .

مرة أخرى لايقدم لاندو أكثر مما قدمه زيدان من قبل ، باستثناء اشارته الى المحفل الألمانى الذى لم يرد له ذكر عند زيدان . وقد جاء ذكر محفل « نهضة اليونان » مختلفا عما جاء عند الأخير الذى ذكره باسم « محفل اليونان » وذكر أن مقره القاهرة ، وأن تأسيسه تم عام ١٨٦٦ ، ولكنه تعطل(٢٨) . أما محفل « اتحاد الشعب » الايطالى فلم يرد ذكره عند زيدان تحت هذا الاسم ، وربما كان له اسم آخر من الأسماء الخمسة للمحافل الايطالية التى أوردها (الكوكب الاسكندرى ، نوفا بومبيا ، الشنشناتو ، السلام ، نور الشرق(٢٩) .

وقد استخلص لاندو هذه المعلومات والتواريخ ـ كما يقول ـ من وثائق ورسائل ومنشورات ايطالية وفرنسية عديدة . ومع ذلك فهى لاتضيف الكثير كما قلنا لما رواه جرجى زيدان ، الا فيما يتعلق بالنصف الأول من القرن الماضى . ومع ذلك أيضا فهذه الاضافة تنكرها هوما باكدامان التى تعتقد أن الماسونية لم تدخل مصر قبل سنة ١٨٤٨ . فقد رجعت الى محفوظات المحافل الفرنسية فى باريس ، ووجدت أن أول محفل أنشىء فى مصر هو محفل « الاهرام » الذى تأسس فى الاسكندرية فى ١٦ ابريل ١٨٤٨ ، ثم توقف عن نشاطه بعد فترة قصيرة . ولكنه استأنف النشاط سنة ١٨٦٢ .

تضيف باكدامان أن ستينات القرن الماضى شهدت انشاء

محفلين آخرين تحت رعاية « الشرق الأعظم الفرنسى » ، همـا محفل « نهضة اليونان » الذى تأسس فى الاسكندرية فى ٩ نوفمبر ١٨٦٣ ومحفل « النيل » الذى تمت الموافقة على دستوره الرمزى فى ٢٣ مارس ١٨٦٨ . ومع ذلك لم يتأسس ـ فى رأيها ـ أى محفل أهلى مصرى قبل سنة ١٨٧٥ ، على الرغم من أن محفل « الأهرام » طلب من محفل الشرق الأعظم الفرنسى فى ٢٠ فبراير من ذلك العام انشاء محفل فى مصر تكون لغته العربية ، بدعوى أن جميع المحافل تستخدم لغات أجنبية ، وأن الأهالى لايستفيدون من هذه المحافل . ومن ثمة تأسس محفل « نور مصر » تحت رعاية الشرق الأعظم الفرنسى . كما تأسس فى الاسكندرية أيضا محفل فى غاية من الأهمية هو « الشرق الأعظم المصرى » الذى اندمجت فيه المحافل الاخرى الأصغر . واختير الأمير حليم أستاذا أعظم لهذا المحفل الكبير(٣٠) .

ومع ذلك فهذه الرواية مهمة ، من حيث أنها تضيف بعض التفصيلات حول نشأة المحافل التابعة لفرنسا . ولكنها لا تدحض احتمال أن يكون بونابرت وضباطه أسسوا محفلهم ـ ان صح أنهم أسسوه ـ بمعزل عن المحفل الأعظم فى بلادهم ، فضلا عن أنها تتعلق بالمحافل الفرنسية وحدها ، ولاتتصل بالمحافل الأخرى ، ولا سيما الايطالية التى قد تكون أسبق من زميلاتها . وبذلك يظل اجتهاد لاندو صحيحا . ويسنده ، من جهة أخرى ، أن الجالية الايطالية فى مصر ـ فى الاسكندرية بصفة خاصة ـ كانت أكبر الجاليات الأوربية طوال عهد محمد على ، على الرغم من أن الأخير كان أميل الى الفرنسيين .

ومع أن الرواية المشهورة حول دخول الماسونية مصر زمن الحملة الفرنسية لاتستند الى أى دليل مادى موثوق فيه فهى تظل محض اجتهاد أيضا ، ربما يسنده أن ضباط بونابرت وجنوده أسسوا محافل ماسونية فى ألمانيا عندما فتحوها سنة ١٨٠٦ .

غير أن لاندو وباكدامان لم يذكرا شيئا عن ذلك الرجل الذى يبدو أنه لعب دورا خطيرا فى المحافل الماسونية فى تلك المرحلة ، وهو سوليتيرى زولا الذى ذكره زيدان ، وانتفع بما عنده من مـادة عن المرحلة · فهذا الرجل الذى لاندرى ملته أو جنسيته لم يذكره بعد ذلك سوى شاهين مكاريوس فى أوائل القرن العشرين · ومع أن مكاريوس الماسونى الأكثر تحمسا من زيدان ، وقع فى بعض الأخطاء الخاصة بالتواريخ التى ذكرها زيدان ، مثل دخول الماسونية مصـر فى أغسطس سنة ١٧٩٧ وصوابها ١٧٩٨ ، فقد ذكر أن المحفل الأعظم الوطنى المصرى تأسس سنة ١٨٧٦ « بعد حدوث انقلابات كثيرة » على حد قوله دون توضيح ، وأن أول رئيس له كان رجلا ايطاليا – هكذا – يدعى سولتورى أفنتورى زولا · ثم قال مكاريوس ان ذلك الرجل « فصل فيما بعد ومحى اسمه من سجل المحفل الأكبر لدواع اقتضت ذلك » دون توضيح أيضا(٣١) · ثم ترأس المحفل بعده رجل آخر (ربما يكون يونانيا) اسمه ديونيس ايكونوموبولو سنة ١٨٧٧ · واذا كان زولا المذكور قد ترقى فى سلم الماسونية حتى وصل الى درجة « أستاذ أعظم » – كما رأينا – ثم أخنى عليه الدهر ، فعزل ، ومحى اسمه من سجل المحفل لدواع اقتضت ذلك ، فلابد أن تكون هذه الدواعى شديدة الأهمية والخطورة · ولكن مكاريوس لم يفصل ما قال ، ومات على ماسونيته دون أن يصرح بشىء ·

ومن الوقائع والمعلومات السابقة يبدو الغرض السياسى فى دخول الماسونية مصر واضحا ، سواء دخلتها على أيدى بونابرت وضباطه أو دخلتها فى عهد الخديو اسماعيل · كما يبدو الطابع الأوربى فى دخولها واضـحا أيضا · فباستثناء الأميرين حليم وعبد القادر لم تحفظ لنا السجلات الأولى لأعضاء المحافل الماسونية

سوى أسماء الأوربيين ، ايطاليين وفرنسيين ويونانيين ، كما يتضح من الأسماء التى ترددت هنا حتى الآن(٣٢) ·

غير أن هذه المرحلة ، مرحلة التأسيس ، حفلت – فيما يبدو – بالكثير من النشاط والتطورات ، بالرغم من بعض الغموض الذى يحيط بتفاصيلها · واذا كانت الماسونية قد دخلت مصر على أيدى الأوربيين النازحين من مختلف الأجناس والجنسيات فقد بدأت فى استقطاب الأهالى وتشجيعهم على الانضمام اليها فى عهد اسماعيل (١٨٦٣ – ١٨٧٩) بصفة خاصـة ، وربما لعب الأميران حليم وعبد القادر دورا فى هذا الاستقطاب ·

يقول لاندو :

« يجوز القول بوجه عام أن الماسونية التى أدخلها الأوربيون الى مصر ظلت مخلصة لمبادىء البر والاحسان والأخوة · وعلى العكس من ذلك تمثلت أسوأ أفعالها فى بعض (لا كل) المحافل الايطالية التى استغلت الماسونية فى اخفاء نشاطها الهدام · ففى السنوات ١٨٦٨ – ١٨٧٠ على سبيل المثال توجد بعض التقارير المخطوطة البالغة الطرافة للممثلين السياسيين والقنصليين فى مصر ، وتصور هذه التقارير المحافل الماسونية فى صورة خلايا النحل التى تعج بالعناصر الهدامة سياسيا وجنائيا · فمن الناحية السياسية تتآمر هذه العناصر على البيت المالك فى ايطاليا · ومن الناحية الجنائية تمارس الاجرام فى المدن المصرية ، بالقتل وغيره · ثم تجد من محافلها الماسونية الحماية والمأوى والعون »(٣٣) ·

وخلال السنوات ١٨٧١ – ١٨٧٩ كانت جميع النشـرات الماسونية فى مصر تصدر بالايطالية ، كما يقول لاندو(٣٤) · وكانت الاسكندرية مركز الماسونية فى مصر ، ومع ذلك لم يكن ثمة مفر من

أن يستخدم بعض المصريين المحافل فى تحقيق أغراضهم خلال عهد اسماعيل الذى كان فترة اختمار للحركة الوطنية بجميع تياراتها · وكانت الظروف التى وضع فيها اسماعيل البلاد تشجع البحث عن مختلف الوسائل لعلاج أحوال الاقتصاد المتردى والديون المتزايدة والاستبداد المطلق · وكان النموذج الايطالى من الماسونية مطروحا فى سوق الحركة الوطنية الوليدة ، بكل مافيه من شراسة ومؤامرات ويبدو أنه كان نموذجا مفضلا · فقد تحمس لممارساته السياسية كثيرون من الوطنيين بمختلف فئاتهم ، ولاسيما الذين انضموا منهم للمحافل الماسونية ، ايطالية أو فرنسية أو انجليزية أو مصرية ·

كان على رأس هؤلاء جميعا شخصيتان لعبتا دورا خطيرا فى تطورات الأحداث فى أواخر عهد اسماعيل ، وهما الأمير عبد الحليم (١٨٢٦ ـ ١٨٩٤) المشهور باسم حليم وجمال الدين الأفغانى (١٨٣٨ ـ ١٨٩٧) وكان للاثنين تلاميذ ومريدون وأتباع ، أو كان لهما ـ بتعبير ذلك العصر ـ حزبان متعارضان فى الكثير ، ومتفقان على شىء واحد هو ضرورة التخلص من اسماعيل ·

أما حليم فكان الوريث الوحيد للعرش حسب نظام الوراثة القديم الذى نجح اسماعيل فى تغييره سنة ١٨٦٦ ، فجعل ولاية العهد لأكبر أبنائه مقابل أكبر أبناء الأسرة العلوية حسب النظام القديم فى عهد محمد على · وبذلك حرم حليم من عرش مصر بالرغم من أنه كان أكبر من اسماعيل بشهرين فقط · وقد تلقى تعليمه فى فرنسا بكلية سان سير العسكرية ، وعاد الى مصر سنة ١٨٤٥ فارتبط بالماسونية ، وأنشأ علاقات طيبة مع أفراد الأسرة الخديوية والأعيان والمثقفين والفرنسيين · واختاره الماسونيون أستاذا أكبر لهم فى محفل الشرق الأكبر المصرى سنة ١٨٦٧ ، برغم محاولات اسماعيل لاقصائه عن طريق أعوانه الماسونين الايطاليين · وعلى أثر انتخابه أستاذا أكبر بدأ وأعوانه فى التآمر

على اسماعيل · ثم اتهمه اسماعيل بمحاولة اغتياله سنة ١٨٦٨ على أيدى بعض الايطاليين الماسونيين · واتخذ ذلك ذريعة لطرده من مصر فأبعده فى نهاية ذلك العام · وذهب حليم الى الآستانة عاصمة الخلافة العثمانية فعاش هناك بقية حياته · ولكن صلته بالأحداث فى مصر لم تنقطع · فقد ظل أعوانه الماسونيون يتحركون، ولاسيما بعد تأكيد السلطان ولاية أبناء اسماعيل بفرمان سنة ١٨٧٣ ·

وفى ١٨٦٩ نسب اليه اسماعيل مؤامرة فاشلة على حياته · وفى ١٨٧٦ شكا منه للقنصل الايطالى بسبب استغلاله أعوانه الماسونيين فى مؤامرات ضده · وفى ١٨٧٩ خفض معاشه الى الربع بمقتضى قانون التصفية للديون · وكان حليم ركز نشاطه من خلال الجمعيات السرية الايطالية ابتداء من سنة ١٨٧٧(٣٥) · ولما سقط اسماعيل فى النهاية سنة ١٨٧٩ حاول حليم الاتصال بالعرابيين والتعاون معهم على اسقاط توفيق ، ولكن الاحتلال الانجليزى قضى على هذه المحاولة سنة ١٨٨٢ · ومع ذلك ظل شبح حليم يهدد توفيق من بعيد حتى وفاة الأخير سنة ١٨٩٢ ·

كان أعوان حليم من الماسونيين فى مصر ايطاليين وفرنسيين ويهودا فى معظمهم ، وكان من بين أنصاره يعقوب صنوع الذى ظل يؤيده فى صحفه العربية فى باريس حتى وفاته ، وكذلك حسن موسى العقاد أحد كبار تجار القاهرة الذى نفى عقب فشل الثورة العرابية ، فضلا عن بعض الكتاب والصحفيين الآخرين الذين كانوا يتراوحون بينه وبين توفيق مثل أديب اسحق وسليم النقاش ، بالاضافة الى عدد غير معروف من ضباط الجيش ممن اشتركوا بعد ذلك فى الثورة العرابية ·

وأما الأفغانى الذى طاب له المقام فى مصر ابتداء من ١٨٧١ الى ١٨٧٩ فكان أقرب وأميل الى توفيق ، ولاسيما بعد أن اتفق معه قبل توليه الحكم على اصلاح حال البلاد والحكم بالدستور والبرلمان ·
ومع أن الأفغانى قضى سنواته الأولى فى تعليم الشباب ، وجمع حلقة واسعة من التلاميذ والمريدين على اختلاف انتماءاتهم وعقائدهم فسرعان ما نزل الى ميدان السياسة التى شغلت الجميع وقتذاك · وشجع على اصدار الصحف ودخول الماسونية · ثم دخل بنفسه الماسونية ، وأدخل معه معظم تلاميذه · ولكننا لا ندرى على وجه الدقة هل دخلها قبل ١٨٧٥ أم لا · ولكن دخوله الماسونية لم يكن « لأنه رأى فيها امتدادا حديثا لحركات التطرف الاسلامية القديمة التى اجتذبته بشكل واضح » كما يقول المستشرق ايلى كدورى(٣٦) ، وانما لأنه رأى فيها وسيلة للاصلاح والتغيير ، مثلها مثل الصحافة والخطابة اللتين ارتبط بهما وقت دخوله الماسونية ، ولاسيما بعد **تفاقم التدخل الأوربى وسوء أحوال البلاد** · ويبدو أنه أعجب بشعار الماسونية الذى رفعته فى ذلك الوقت فى «الحرية والاخاء والمساواة» ، وهو ذاته شعار الثورة الفرنسية الذى روجته المحافل التابعة لفرنسا فى مصر ·

لقد كشفت أوراق الأفغانى الخاصة التى نشرتها جامعة طهران سنة ١٩٦٣ عن بعض المعلومات المهمة الجديدة فى هذا الموضوع · ومنها ورقة سجل فيها الأفغانى مسودة طلب التحاق بأحد المحافل وعليها تاريخ « يوم الخميس ٢٢ ربيع الثانى ١٣٩٢ » (الموافق ٣١ مارس ١٨٧٥) وفيها كتب بخطه الفارسى الجميل :

« يقول مدرس العلوم الفلسفية بمصر المحروسة جمال الدين الكابلى الذى مضى من عمره سبعة وثلاثون سنة بأنى أرجو من اخوان الصفاء ، واستدعى من خلان الوفاء ، أعنى أرباب المجمع المقدس الماسون الذى

هو عن الخال والزلل مصون ، أن يمنوا على ويتفضلوا الى بقبولى فى ذلك المجمع المطهر ، وبادخالى فى سلك المنخرطين فى ذلك المنتدى المفتخر » ·

ولكم الفضل

جمال الدين الكابلى(٣٧)

لم يحدد الأفغانى اسم المحفل الذى عناه فى طلبه ، وان كانت الباحثة هوما باكدامان تستنتج من لغة الطلب أنه المحفل التابع لفرنسا على أساس أن أول محفل أهلى استخدم العربية كان تابعا لفرنسا وافتتح قبل ذلك التاريخ بقليل(٣٨) ·

ومن الملاحظ فى هذا الطلب أن الأفغانى عرف نفسه بأنه « مدرس العلوم الفلسفية » ونسب نفسه الى كابول عاصمة أفغانستان أما اشارته الى « اخوان الصفاء » فيبدو أنها هى التى أوحت لكدورى بملاحظته السابقة ، فى حين أنها جاءت فى الغالب بقصد اكمال السجع الذى سيطر على صيغة الطلب ، وربما للاشارة الى اسم « الاخوان » الذى كان الماسونيون يحرصون على استخدامه – ومازالوا – عند الحديث عن جماعتهم ·

هناك ورقة أخرى ضمتها أوراق الأفغانى الخاصة سجل عليها عبارة :

« دخلت المحفل فى ١٠ عاشوراء ١٢٩٣ (الموافق ٦ فبراير ١٨٧٦) أثناء اقامتى بمصر »(٣٩) ·

وللمرة الثانية لم يحدد الأفغانى اسم المحفل ولا نوعه ، وان كانت العبارة تشير الى أنها جواب طلب التحاقه السابق · ومعنى هذا أنه قضى نحو عام فى انتظار قبول عضويته ·

هناك أيضا ١١ خطاب دعوة لحضور اجتماعات لمحافل

انجليزية وفرنسية وايطالية ويونانية فى الفترة من ٢٤ يناير ١٨٧٧ الى ٢٣ فبراير ١٨٧٩(٤٠) ويتبين من هذه الدعوات أن عدد المحافل التى شهدتها القاهرة فى تلك الفترة بلغ ٩ محافل ٠ كما يتبين أن الأفغانى اختير رئيسا لمحفل « كوكب الشرق » التابع للمحفل الأكبر الاسكتلندى فى ٢٨ ديسمبر ١٨٧٧ ، وأنه أصبح – بسرعة – شخصية مرموقة فى هذه المحافل ، يدعى لحضور جلساتها غير العادية أو لشهود الاحتفال بدخول أعضاء جدد ٠ وربما كان مسموحا بتعدد العضوية فى بعض هذه المحافل ٠

ويهمنا من هذه الخطابات خطاب معين صادر من محفل كوكب الشرق فى القاهرة بتاريخ ٧ يناير ١٨٧٨ وهذا نصه بعربيته الركيكة :

« الى الأخ جمال الدين محترم

انه لمعلوم لديكم بأن فى جلسة ٢٨ الماضى وبأغلبية الآراء صار انتخابكم رئيس محترم لهذا اللوج لهذا العام ٠ ولذا قد نهنيكم ونهنى ذواتنا على هذا الحظ العظيم ٠ وعن أمر الرئيس محترم الحالى أدعو اخوتكم للحضور يوم الجمعة القادم ١١ الجارى الساعة ٢ عربى بعد الغروب الى محفل هذا اللوج لأجل استلامكم القادوم بعد اتمام ما يجب من التكريز الاعتيادى ٠ ثم سيصير يوم الخميس ١٠ الجارى الساعة ٦ أفرنكى مساء تكريز رئيس محترم لوج كونكورديه ٠ فالرجا حضوركم فى اليوم المذكور للاشتراك فى الأشغال ٠ وفى الحالتين ملابسكم تكون سوداء ورباط الرقبة والكفوف بيضاء ٠ واقبلوا منا العناق الأخوى ٠٠٠ »

كاتب السر

نقولا سكروج

بالرغم من ركاكة هذا الخطاب(٤١) فهو من الوثائق النادرة للماسونية فى ذلك العصر ٠ ولا ندرى شيئا عن أصل موقعه ، فربما كان ايطاليا أو يونانيا ، ولكننا ندرى من الخطاب – فضلا عن ركاكته – أنه وضع تحت اسم « لوج كوكب الشرق » فى أعلاه رقما هو ١٣٥٥ ، ولعله رقم المحفل فى التسلسل الذى يتبعه ، وكان راعيه المحفل الأكبر الاسكتلندى ٠ وندرى أيضا أن التاريخ الذى يعلو الخطاب استخدم – فضلا عن كلمة « لوج » الفرنسية بمعنى « محفل » – كلمة « جنايو » الايطالية بمعنى « يناير » ، والتاريخ الماسونى (٥٨٧٨) تحت التاريخ الميلادى ، فضلا عن استخدام الرمز ∴ فى آخر الخطاب ، وهو من رموز الماسونية وعلاماتها المشهورة ٠

وفى تلك الفترة التى انهمك فيها الأفغانى فى نشاطه الماسونى خطرت له ذات يوم فكرة اغتيال الخديو اسماعيل كحل للتخلص من استبداده واسرافه وبؤس حال العباد ٠ فقد روى محمد عبده للمستشرق المؤرخ الانجليزى ويلفرد بلنت أن الأفغانى اقترح فكرة ضرورة اغتيال الخديو أثناء مروره اليومى بعربته على جسر قصر النيل ، وأنه – أى عبده – وافقه عليها بحرارة ، وان كان الأمر لم يتجاوز الحديث الخاص بينهما كما قال عبده(٤٢) ٠

ذكر محمد عبده لبلنت أيضا أن الضابط لطيف سليم المدرس بالمدرسة الحربية الذى أعتقل بسبب مظاهرة الضباط ضد وزارة « نوبار » الأوربية فى فبراير ١٨٧٩ لم يفرج عنه الا بعد تدخل الماسونيين وتوسطهم لاطلاق سراحه ٠ وكان سليم ماسونيا ومن مريدى الأفغانى وأعضاء محفله(٤٣) ٠ واذا كانت هذه الواقعة هى الوحيدة المسجلة حول نفوذ الماسونية فلاشك أن هناك وقائع أخرى لم يسجلها أحد ٠

ولم يكن الأفغانى وحده متحمسا للماسونية ونشاطها • فقد شاركه تلاميذه ، ولاسيما من محررى الصحف • فقد درجت صحيفتا « مصر » و « التجارة » اللتان كان يحررهما أديب اسحق على متابعة اخبار رائدهما وزعيمهما • ومن ذلك ما نشرته « التجارة » فى ٢١ يناير ١٨٧٩ • فقد وصفت احدى الحفلات الماسونية التى خطب فيها الأفغانى بصفته رئيسا للمحفل فقالت عن الحفل :

« انتظم على مائدتها نيف ومائة قائل بالحرية والاخاء والمساواة ، معظمهم من وجوه الوطن ونبهائه • وفيهم فئة كبيرة من ذوى المقامات والعلماء من المسلمين وغير المسلمين • فقام فيهم الرئيس المحترم خطيبا ، يبين ماهية ذلك الاجتماع ومقاصد الماسونية وصفق الحاضرون ونادوا بأعلى الصوت : فلتحيا الحرية والمساواة والاخاء • ثم توالت الخطب للسعى فيما يوجب سعادة النوع الانسانى ، وينقذه من ربقة الذل والعبودية • وتحالفت القلوب على الانتصار للحق والانسانية ، وألا يخافوا فيها أحدا »(٤٤) •

وقد استمرت صحافة الأفغانى — اذا صحت التسمية — فى هذه الحماسة للماسونية حتى اعتقاله وترحيله الى الهند • وقوى هذه الحماسة أنه أقدم قبل أيام من خلع اسماعيل على تصرف جرىء أثار انقساما بين الماسونيين وأنشب معركة حامية بينهم • فقد ذهب بنفسه ومعه سليم نقاش (مدير جريدتى مصر والتجارة) كمترجم الى دار القنصلية الفرنسية ، وطلب مقابلة القنصل (مسيو تريكو) فلما أذن له بالمقابلة دار حوار بينهما حول الأوضاع المتردية وضرورة تدخل فرنسا من أجل تنازل اسماعيل لابنه توفيق • وطمأنه القنصل وطالبه بالصبر لأن « التنازل صار أمرا مقررا وشيك الحصول » ، والتزام الهدوء لأن القلاقل قد تعود بالضرر على ولى العهد • ولكن المشكلة بدأت عندما نشرت « مصر » الموضوع فى ٢٧ يونيو ١٨٧٩ — بعد تنازل الخديو بالفعل • فقد استهل الأفغانى

حديثه مع القنصل بقوله : « لقد أتيت بالأصالة عن نفسى ، وبالنيابة عن الحزب الماسونى والحزب الوطنى الحر المنتشر فى جميع أنحاء القطر المصرى »(٤٥) •

فى أعقاب نشر موضوع هذه المقابلة الجريئة نشرت صحيفة « الوقت » احتجاجا من خمسة أعضاء فى « محفل كوكب الشرق » أو « الكوكب الشرقى » — كما ذكرت الصحيفة — على اقحام الأفغانى الماسونية فى الموضوع ومخالفته قوانينها التى تمنع التدخل فى المسائل السياسية والدينية • وكتبت « التجارة » فى ١٠ يوليو ١٨٧٩ ردا بعنوان « الجمعية الماسونية فى الشرق » بامضاء « أديب » (أديب اسحق) ذكرت فيه أن الماسونية « مأمورة بخدمة الانسانية كيفما كانت الطرق الموصلة اليها » وأشارت الى ما يحدث فى الماسونية الأوربية من تدخل فى السياسة ، وفضل أن يحاكم ذلك « العضو الجليل » ، أى الأفغانى ، « فى المحفل الرئاسى بدلا من هتك حرمة الماسونية لدى الرأى العمومى »(٤٦) •

وأعلنت « التجارة » فى ١٥ يوليو ١٨٧٩ أنه تقرر فى « محفل كوكب الشرق السنى الماسونى فى جلسة مساء الجمعة الماضى أن يخطأ الأعضاء الخمسة فى ما تهافتوا على نشره فى جريدة الوقت مما خرجوا به عن حد الصواب والحق وخالفوا القوانين الماسونية »(٤٧) ثم نشرت فى ٥ أغسطس ١٨٧٩ رسالة للأفغانى يعقب فيها على ماخاضت فيه الصحف حول ذهابه الى القنصل الفرنسى وقال : « ان المصريين عموما والحزب الحر خصوصا الذى من ضمنه جماعة الماسون من أبناء الوطن قد كانوا غير راضين عن هيئة حكومتهم السابقة • وكانت جميع أمانيهم حصر الخلافة الخديوية فى سمو ولى العهد على ولائه • ولأجل ايضاح هذه الأمانى التى من شأنها أن تولى الشرف لكل وطنى حقيقى قد كلفت بالذهاب الى سعادة الجنرال المشار اليه »(٤٨) •

كانت هذه الكلمة آخر ما نشره الأفغانى بالصحف المصرية ٠ فقد طرد بعد أقل من ثلاثة أسابيع ٠ وقبل أن يعتقل بيومين نشرت « التجارة » فى ٢٢ أغسطس ١٨٧٩ خبرا مؤداه أنه « وفد على الجناب المعظم (الخديو) وفد من رؤساء الماسون التابعين لشرق مصر الكبير ٠ وخطب أحدهم بين يدى جنابه الكريم »(٤٩) ٠ وكان هؤلاء من أنصار الأمير حليم بالطبع ، ولكنهم ماذهبوا ليهنئوا الخديو على توليه الخديوية ، فقد فات أوان التهنئة ، وانما ليتبرأوا أمامه فى الغالب من تصرف الأفغانى واقحامه الماسونية فى السياسة وتحدثه بلسانها ٠ واذا ربطنا بين هذا كله وبين طرد الأفغانى فمن الممكن القول أن تصرفه الجرىء ساهم بنصيب كبير فى طرده وعجل به ٠

وبعد طرد الأفغانى من مصر تشتت « اخوانه » الماسونيون ، ولم يبق سوى اخوان حليم الذين كان من المحتم عليهم أن يبادروا بالمصالحة مع النظام الجديد ، والا تعرضوا لما تعرض له خصمهم ٠ ومن الواضح أن هؤلاء نجحوا فى مبادرتهم كما يتبين من رسالة الأفغانى الى صديقه رئيس الوزراء مصطفى رياض فى أواخر ١٨٨٢ ٠ فقد كشف فى هذه الرسالة عن الصراع العنيف بين أنصاره الماسونيين وأنصار حليم عقب زيارته للقنصل الفرنسى ٠ وأرجع سبب تلك الزيارة الى زيارة أخرى سابقة قام بها الماسونيون « من الافرنج وأذيالهم » الى القنصل نفسه ٠ وفيها « بلغوه أن صغو (ميل) المصريين مع عبد الحليم باشا وضلعهم معه ، وروعوه من وقوع الفتنة ان عدل عنه الى غيره » ٠ ويستطرد الأفغانى بقوله : « ولما بلغت هذا أسرعت أنا والمعتزون بحب الخديو (توفيق) من حزبى الى القنصل فكذبت ما بلغوه ، وأظهرت له جلية الأمر ، وكشفت القناع عما أضمروه ٠ وقد أعلن كل هذا فى الجرائد الوطنية »(٥٠) ٠

ومعنى هذا فى النهاية أن الماسونيين انقسموا فى أواخر عهد اسماعيل الى فئتين : فئة تسعى الى احلال الأمير حليم محل اسماعيل ، ومعظم هذه الفئة من الأجانب ، وفئة أخرى تسعى الى احلال توفيق ، ومعظمها من الأهالى تحت قيادة الأفغانى ٠ وبالرغم من انتصار الفئة الأخيرة بفعل عوامل أخرى أقوى منها ، أهمها ميل الدول الأوربية والدائنين الى توفيق ، فقد ذهب الأفغانى نفسه ضحية المناورات والدسائس بين الفئتين ٠ وكان طرده خاتمة للصراع والنشاط الدائب بين صفوف الماسونية فى تلك المرحلة ٠٠

لقد أشار الأفغانى بعد سنوات عديدة الى سر خلافه مع الماسونية فى القاهرة خلال تلك المرحلة بوجه عام ، حين صرح لتلميذه محمد المخزومى فى الآستانة بأنه « اكتشف أن الجبن يمكنه أن يدخل بين اسطوانتى المحافل الماسونية » ، وأن شعارات الماسونية استدرجته وجعلته ينضوى تحتها فاذا به يجدها مفعمة بالأنانية وحب الرياسة والأعمال التى تقودها الأهواء ٠ وحذر فى الوقت نفسه من أن الماسونية « ستختنق فى المهد » ان لم تصلح حالها وتعود الى أصولها الصحيحة التى شوقته للعمل تحت لوائها ، مثل الحرية والاخاء والمساواة والسعى وراء دك صروح الظلم وتشييد معالم العدل المطلق على حد تعبيره(٥١) ٠

وعلى الرغم من هدوء نشاط الماسونيين فى مصر بعد طرد الأفغانى وتشتت تلاميذه حتى دخول الانجليز فى يوليو ١٨٨٢ فمن المنطقى أن يمضوا فى تأييدهم لتوفيق والمصالح الأوربية ، نظرا لأن

أغلبيتهم كانت من الأوربيين ، وأن ينفصل الأهالى الذين كانوا يشكلون أقليتهم على أثر طرد الأفغانى انتظارا لوضوح الموقف ٠ فلما تردت الأوضاع فى الجيش سنة ١٨٨١ ، وسيطر عرابى ورفاقه على الموقف ، كان من الطبيعى أن ينضم القسم الأكبر من هذه الأقلية الى العرابيين ، وهذا ما حدث لتلاميذ الأفغانى ابتداء من محمد عبده الى سعد زغلول ٠ وكان من الطبيعى أيضا أن تؤثر الأغلبية الماسونية الأجنبية الصمت ، أو مراقبة الموقف فى صمت ظاهرى على الأقل ، ولكن هذا لايمنع احتمال حدوث اتصالات بين العرابيين والماسونيين من أنصار حليم ٠ وفى كلتا الحالتين أنتهت المرحلة كلها بغزو الانجليز ٠

الفصل الثانى

مرحلة الاستقرار